# الباب الأول

# في التربية وأقوال العلماء فيها

يعُنى الناس الآن بأمر التربية عناية لم يسبق لها مثيل في جميع العصور، لأنها أثبت الدعائم التي تبنى عليها أسباب الرقي والفلاح. فلا يطمع مصلح في النهوض بأمة إلى الرقي والجمال من غير أن يكون قد جعل للتربية المكانة الأولى من بين الوسائط التي يتخذها لرفع شأن أمته. وقد حثت الشرائع على التفقه و التعلم؛ فالقرآن يضمن النجاح لأي أمة تسير على منهاجه وفي كثير من آيه ترى الحث على التربية والتعليم كقوله تعالى «وفي أنفسكم أفلا تبصرون» «أولم يتفكروا في خلق السموات والارض» وقوله عز وجل «قل أنظروا ماذا في السموات والأرض». وقال تعالى مخاطبًا نساء النبي عليه الصلاة والسلام «وأذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة» وغير ذلك من الآيات كثير. وقال عليه الصلاة والسلام «تعلم العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» كما يعزي إليه ﷺ «أطلبوا العلم ولو بالصين».

وقد حذا خلفه من بعده حذوه وسعوا في تحصيل العلم والحث على الإشتغال به حتى جاءت الدولة العباسية وأخذ رجالها من العلم بقسط وافر، وطرقوا أبواب مكاتب اليونان والفرس، وأخرجوا منها للناس كنوزًا ثمينة، وترجموا من علومهم ما شاء الله أن يترجموا، فإنتشرت العلوم

والمعارف وإرتقت المدنية والحضارة، وظهر من كتبهم و تأليفهم ما هو مفيد عظيم الشأن. ولولا خشية التطويل لذكرت منها العدد العظيم، فكانت خدمتهم للإنسانية أعظم من خدمة أساتذتهم الذين قصروا تعليمهم على أبناء أمتهم.

ثم خلف من بعدهم خلف أضاعوا ما جمعه سلفهم وما حرصوا عليه حرص الشحيح على ماله، حتي ساد فيهم الجهل وتسيطر الظلم والطغيان على أنفسهم، وأصبحت التربية مقصورة على أولاد الأمراء والكبراء أصحاب الجاه والمال والملك فصاروا يرون أنها حق من حقوقهم لا تتعداهم إلى غيرهم، فأهمل السواد الأعظم إهمالًا أصبح معه غارقًا في لجج الجهالة، وما دروا أن من القواعد المتينة التي أسست عليها الشرائع المنزلة تساوي الأفراد.

وإنه ليسر كل محب للإصلاح أن الحال أخذت في التغير وأصبح كل إمرئ يرى أن التربية حق له ولكل فرد من أفراد النوع الإنساني من ذكر وأنثى، وأضحت الفكرة التي سادت في القرون الوسطى والأخيرة من أن التربية والتعليم ميزة الأغنياء والنبلاء منبوذة، فصارت التربية مرمى آمال المصلحين لأنها هي الوسيلة لرفع أممهم، والنهوض بهم إلى درجة الكمال.

## عوامل التربية وتعريفها

إن كلية التربة شغلت أفكار كثير من الفلاسفة والمربين في جميع العصور. وسنذكر آراء

بعض أولئك الفلاسفة في معنى التربية والغرض منها. ولنبدأ الآن

بكلمة موجزة في عواملها والمؤثرات التي تكونها فنقول :إذا نظرنا إلى العوامل التي تؤثر في الإنسان وتساعد على تكوين حياته نرى:

(١) إن بعضها خارج عن سيطرته كالمؤثرات الطبيعية من المناخ والبيئة الطبيعية التي تحيط به والبيئة الإجتماعية من الأسرة والإخوان وغير ذلك فليس منا من يجهل ما للمدينة أو القرية أو المراكز الإجتماعية فيه من الأثر، وكذا ما لليسر أو العسر، والرقة أو الغلظة في الأشخاص من التأثير. كذلك كل شيء يعتري الإنسان في حياته يؤثر فيه تأثيرًا ما، بيد أن هذا التأثير قد يكون غير محسوس في بعض الأحيان.

(٢) وبعضها تابع لإرادته ويقصد بها تربية الطفل وتأهيله لأن يكون رجلًا كاملًا.

ومن هنا يتبين أن التربية لها معنيان عام وخاص ، فالتربية بالمعنى العام هي كل ما يؤثر في تكوين الشخص الجثماني والعقلي والخلقي من حين ولادته إلى موته. وتشمل جميع العوامل سواء أكانت مقصودة كالتربية المنزلية والمدرسية ونحو ذلك، أم غير مقصودة كالتربية التي تجيء عرضًا ومن تأثير البيئة الطبيعية والإجتماعية وغير ذلك.

وأما بالمعنى الخاص ، فهي كل الوسائل التي يتخذها الإنسان قصد إنماء جسم الطفل وعقله وتكوين خلقه. وهذا مقصور على تربية المنزل، والمدرسة، والمعاهد العلمية.

## آراء بعض المربين في التربية والغرض منها

قال ابن المقفع «ما نحن إلى ما نتقوى به على حواسنا من المطعم والمشرب بأحوج منا إلى الأدب الذي هو لقاح عقولنا».

وقال أفلاطون «الغرض من التربية هو إمداد كل من الجسم والعقل بما يمكن من الكمال والجمال» وقد إقترح على أمته أن تربي نفرًا قليلًا وهم أبناء الخاصة تربية حكومية نظامية–أما العامة فتربي تربية عملية صناعية محضة يقوم بها البيت. ولقد إتبع هذا بعده في أوربا إلى زمن غير بعيد.

وقال ملكستر«الغاية من التربية تنمية العقل والجسم».

وقال ملتون «التربية الصحيحة الكاملة هي ما تؤهل المرء للقيام بأي عمل خاصًا كان أو عامًا بمهارة فائقة وإخلاص تام في السلم والحرب».

وقال روسو «التربية تزودنا بما لم يكن عندنا وقت الولادة ولكنا في حاجة إليه عند الكبر».

قال كانط «إن أعظم سر في بلوغ الطبيعة الإنسانية درجة الكمال منحصر في التربية» ومما يسر أن الطبيعة الإنسانية في إستطاعتها دائمًا أن ترقى بالتربية إلى درجة من الكمال أرفع و أسمى مما هي عليه، وأنه يتسنى للتربية دائما أن تصاغ في قالب ملائم للنوع الإنساني؛ ومن ثم أمكن أن نأمل للنوع الإنساني مستقبلًا حسنًا وعيشة راضية.

وقال بستالوتزي «أحسن خدمة يقدمها إنسان لآخر هي تعليمه كيف يعول على نفسه. وأنه إذا حسنت أحوال الفقراء الظاهرة حسنت أحوال

الإنسان على العموم».

ومن هنا يظهر أن غرضه كان إصلاح حال الإنسان في الجملة بإصلاح حال الفقراء؛ ولذلك كان يعيش بين الفقراء الذين لا معين لهم ولا مرشد حتى يتمكن من جعلهم كغيرهم من سائر الناس ولقد خالط الشحاذين والساقطين ومن كبابهم سوء الخلق فلفظهم المجتمع الإنساني، لينقذهم من وهدة سوء الأخلاق التي سقطوا فيها وليرد لهم ما فقدوه من الكرامة.

وقال هربارت «الغرض الأصلي من التربية هو رقي الأخلاق الإنسانية».

وقال فروبل «الغرض من التربية هو الحصول على الإنسان الكامل». ولقد قال عن مدرسته «غايتنا هي تخريج أبناء متحلين بالشجاعة، والرقي الخلقي والأدبي، مستعدين لتضحية النفس والنفيس في سبيل وطنهم العزيز؛ تخريج أناس عاملين يعملون لسعادة بلادهم؛ و يرقون في العلوم والصنائع، ويطلبون العلم طول حياتهم حبًا في تقدم بلادهم؛ يحبون الله ويطيعونه حتى يتيسر لهم الرقي إلى ملكوت الله، ويكونوا ملائكة في صورة أناسي».

وقال جيمس مل «التربية تؤهل المرء لأن يكون عاملًا من عوامل السعادة لنفسه أولًا، ولسائر مخلوقات الله ثانيًا».

وقال جون إستورت مل «التربية تشمل كل ما يفعله المرء لنفسه، أو يفعله غيره له لغرض تقريبه من درجة الكمال».

وقال هربرت سبنسر «التربية في إعدادنا لحياة كاملة».

وقال بعض البروسيين» التربية إنماء القوى الإنسانية إنماء تعادل فيه جميع هذه القوى «وربما يتبادر من هذه العبارة أنه لابد من إنماء جميع القوى بنسبة واحدة، وليس الأمر كذلك لأن ميول البشر وإستعداداتهم مختلفة فقد يكون من الواجب الإهتمام بعض القوى في إنسان أكثر من غيرها. ولهذا زاد بعضهم على التعريف المتقدم «بطريقة مبنية على طبيعة العقل» فكل قوى العقل يجب أن تدرس، ثم تقوى وتنمى على حسب طبيعتها.

هذه هي أقوال بعض الفلاسفة في معنى التربية والغرض منها وهي تكاد تكون متفقة على أن الإنسان لا يكون مربي إلا إذ تهذبت نفسه، وكملت أخلاقه، وشرفت عواطفه، وتغلبت إرادته

على شهواته، وأدى كل عضو من أعضائه، وكل حاسة من حواسه، وكل قوة من قواه العقلية وظيفته خير أداء.

## أغراض الأمم من تربية الأطفال

إذا رجعنا إلى تاريخ الأمم وجدنا أن الغرض من التربة عند كل أمة هو تأهيل الطفل للقيام بما تعتبره ضروريًا في تحقق سعادتها ، فأمة اليونان كان بعض علمائها يعتبر أن الحرب أهم مصلحة دنيوية ولذلك إنحصرت التربية عندهم في تربية الجسم وتقويته، وبعضهم إعتبر التربية الذوقية، وغرس حب الجمال أهم ما يلتفت اليه فكانت تربية الطفل عندهم محصورة في تعليم الفنون الجميلة من الشعر والموسيقى والرسم والتصوير ونحوها.

وأما الرومان فكان إعتناؤهم بالفنون الحربية والسياسية والقوانين فنجحوا في تربية أطفالهم هذا المنحى.

وأما المسلمون فالغرض عندهم من التربية هو تأهيل المرء للقيام بعمل الدنيا والآخرة. قال الله تعالى «وإبتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا». ويعزى لرسول الله ﷺ «أحرث لدنياك كأنك تعيش أبدًا وإعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا» وقال بعضهم «المروءة الجمع بين الدين والدنيا فمن تركها تسبب في سخط الخالق وذم المخلوقين».

وقد امتدح أحد الشعراء المأمون بقصيدة جاء فيها:

تشاغل الناس بالدنيا وزبرجها وأنت بالدين عن دنياك مشغول

فقال له المأمون ويحك مازدت على أن جعلتني عجوزًا في محرابها ومعها سبحتها، هلا قلت كما قال جرير في عمر بن عبد العزيز:

فلا هو في الدنيا مضيع نصيبه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

هذا ولقد أوضح رسول الله ﷺ بأقواله وأفعاله أن الغرض الأقصى من التربة هو كمال النفس وتهذيبها قال «أدبني ربي فأحسن تأديبي» وفي كلامه عليه الصلاة والسلام وكلام أصحابه ما يدل دلالة واضحة على ذلك.

ولقد كتب الرشيد لمعلم ولده الأمين فقال: «يا أحمر، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه فصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة، فكن له حيث وضعك أمير المؤمنين أقرئه القرآن، وعرفه الأخبار،

وروه الأشعار، وعلمه السنن، وبصره بمواقع القرآن وبدئه، وإمنعه من الضحك إلا في أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه، ورفع مجالس الفقراء إذا حضروا مجالسه، ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه، ولا تمعن في مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه، وقومه ما إستطعت بالقرب والملاينة، فان أباهما فعليك بالشدة والغلظة»

وكتب عمرو بن عتبة لمعلم ولده فقال: «ليكن أول إصلاحك لولدي إصلاحك لنفسك فإن عيونهم معقودة بعينك فالحسن عندهم ما صنعت، والقبيح ما تركت، علمهم كتاب الله ولا تملهم فيه فتركوه، ولا تتركهم فيه فيهجروه، روهم من الحديث أشرفه، ومن الشعر أعفه، ولا تنقلهم من علم إلى علم حتى يحكموه؛ فإن ازدحام الكلام في القلب مشغلة للفهم، وعلمهم سنن الحكماء، ولا تتكل على عذر مني لك فقد إتكلت على كفاية منك»

## أغراض مختلفة من التربية

(١) كثير من الآباء وبخاصة أصحاب الحرف والمهن يعتقد أن الغرض من التربية المدرسية إنما هو تأهيل الطفل لكسب رزقه وجلب قوته بعد مبارحته المدرسة فهم ينفقون أموالهم في تربية أولادهم آملين أن يستردوا في المستقبل أوفر منها وأكثر حتى أصبحت التربية نوعًا من التجارة فقيمة التربية عندهم على قدر قيامها بهذا الغرض. ورما أدى هذا إلى تعليم كثير من الأفراد أطفالهم مالا يلائم مواهبهم وميولهم؛

كما نشاهده الآن من إرغام الأب إبنه على تعليم الطب أو الحقوق مثلًا وهو لا إستعداد عنده ولا ميل للعلم الذي اختاره أبوه له فيخرج الطفل من المدرسة بعد إنفاق النفس والنفيس صفر اليدين، واللوم في ذلك على وليّ أمره: ومثل هؤلاء الآباء قد يعتقد أن تعليم إختزال الخط مثلًا أنفع وأكثر فائدة من تعليم التاريخ وفن التجارة خير من تعلم الشعر و آداب اللغة. وربما تمادى بعضهم في إعتقاده وإدعوا أن الوقت الذي يصرف في تعلم القراءة والكتابة ضائع، وأن الأولى إنفاقه في تعلم شيء يكتسب الطفل منه مالًا ينفعه في حياته العملية مثل الطهي والخياطة والحياكة.

وأنا لا نستطيع أن ننكر أن في هذا الإعتقاد شيئًا من الصدق وأن التربية يجب أن تكون وسيلة لكسب المال، فإعداد الطفل لعمل يقوم به في مستقبل حياته أمر لابد منه، ولكننا ننكر أن يكون هذا هو الغرض الأسمى من التربية وأن يهمل غيره من الأغراض الشريفة؛ فن الممكن أن يؤدي العامل الأمي عمله كمن يقرأ ويكتب، ولكن القراءة والكتابة والتعليم على الجملة تنمي القوى العقلية فهي التي جعلت العامل في البلاد الراقية أرفع شأنًا منه في البلاد الأخرى.

ومع أن أمر اكتساب المعيشة عامل مهم في حياة كل شخص فليس ذلك كل ما يحتاج إليه المرء، فمسألة صرف وقت فراغه أمر ضروري جدًا، ماذا يفعل العامل الأمي إذا إنتهى من عمله ورأى أمامه وقتًا طويلًا خاليًا ؟ ليس أمامه سبيل إلا التجوال في الطرقات والجلوس في الحانات ونحو ذلك فمن الواجب إذن أن يعلم هؤلاء ويغرس في نفوسهم حب القراءة المفيدة،

ومعالجة الأشياء التي تنفعهم. هذا إلى أنه ربما كان تعليم المرء عاملًا كبيرًا في إتقان عمله.

هذا وهناك أمر آخر هام وهو أن ميل الطفل الحقيقي لحرفة لا يظهر إلا بعد بلوغه سنًا معلومة، فهل يترك بلا تعلم حتى يبلغ هذه السن، أو يعلم حرفة من غير أن يعرف إستعداده لها؟

(٢) يظن كثير من المعلمين أن التربية مرادفة للتعليم، وأن الغرض منها تحصيل العلم وبعبارة أخرى النجاح في الإمتحان فهو لذلك يسعى ما إستطاع في حشو أذهان التلاميذ بالمعلومات، وشحن حوافظهم بالحقائق حتى يمكنهم إجتياز الإمتحان ناجحين.

ولقد شهدت التجارب بأن التعليم المحض الخالي من الإعداد الحقيقي للحياة العملية، ولو ساعد كثيرًا على إنماء القوى العقلية قد يترك المرء محتاجًا في حياته العملية إلى صفات أجل وأهم من التعليم؛ فكثيرًا ما برهن متقدمو التلاميذ في مدارسهم على قصر باعهم في ميدان الحياة.

إن كلا هذين الرأيين: رأى من جعل الغرض من التربية الإرتزاق وكسب العيش، ورأى من جعل الغرض منها تلقين المعلومات قاصر لا يفي ما تنشده التربية الحقيقة الكاملة.

(٣) على المربي أن يؤلف بين المذهبين ويجمع بين الغرضين، ويسعى زيادة على ذلك وراء تربية الجسم والعقل والوجدان، وتكوين الأخلاق وهذا الأخير هو الغرض الأصلي من التربية، ولا أريد بذلك أن يهمل غيره من الأغراض كتقوية الجسم وإرهاف القوى العقلية وتربية الذوق

وحب الجمال فلابد من مراعاتها والعناية بها في مساعدة على كمال الأخلاق. قال ﷺ «من إزداد علمًا ولم يزدد هدى لم يزدد من الله إلا بعدًا، فلابد إذن من بعد كل هذه وسيلة لكمال الأخلاق الذي لا يتأتى إلا بعد العلم التام بالفضيلة؛ فأعمال الإنسان متوقفة على علمه، وعلمه متوقف على ميوله ووجدانه ومصلحته. فينبغي إذن الإهتمام بإصلاح ميول المرء وتربية قوة الشعور بالواجب وتكوين الإرادة الصالحة فيه لتصلح جميع أعماله فالطفل المولع بالقراءة مثلًا إذا تعهده المربى فربى ذوقه وعوده القراءة في مفيد الكتب وشائقها إستغنى عن القراءة في الكتب الساقطة المفسدة للأخلاق.

فلينظر المربي دائمًا في أثر عمله في أعمال النشء أثناء الفراغ والعمل وفي مكان الشغل، وفي المنزل، وفي قيامه بالواجبات الإجتماعية والمدنية إلى غير ذلك. فإذا فكر في ذلك تفكيرًا صحيحًا وسعى في جعل أثر عمله محمودًا فإنه لا يتسرب إليه الخطأ في تربية الأطفال وقيادتهم؛ فالأخلاق لا تكمل إلا إذا كملت القوى الجسمية والعقلية؛ فلا يمكن أن نختار طريق الخير إلا إذا علمنا تمام العلم حقيقته، ولا يقدر على تحصيل العلم إلا من قوى جسمه وصح بدنه.